بخش عربی:

الإعجاز القرآني

□ آیةاللّه الشیخ محمدهادی معرفة

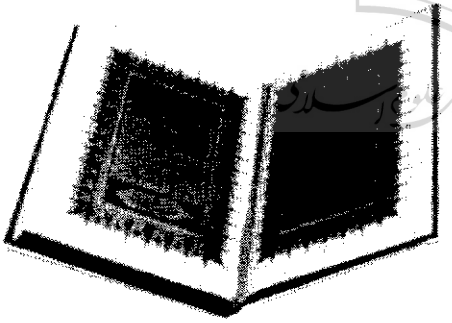

الإعجاز في مفهومه

الإعجاز: مصدر مزيد فيه من (عجز) إذا لم يستطع أمراً، ضد (قدر) إذا تمكّن منه. يقال: أعجزه الأمر، إذا حاول القيام به فلم تسعه قدرته و أعجزتُ فلاناً: إذا وجدتّه عاجزاً أو جعلتّه عاجزاً.

و المُعجزة ـ في مصطلحهم ـ تطلق على كلّ أمر خارق للعادة، إذا قرن بالتحدّي و سلم عن المعارضة، يظهره اللّٰه على يد أنبيائه ليكون دليلاً على صدق رسالتهم.(١)

و هی تتنوع حسب تنوع الأُمم المرسل إليهم في المواهب و المعطيات، فتتناسب مع مستوى رقيّهم فی مدارج الكمال، فمن غليظ شديد الى رقيق مرهف، و من قريب مشهود الى دقيق بعيد الآفاق. و هكذا كلّما تقادمت الأُمم فی الثقافة و

الحضارة فإنّ المعاجز المعروضة عليهم من قِبَل الأنبياء عليهم السلام ترقّ و تلطف، و كانت آخر المعاجز رقّة و لطفاً هي أرقاها نمطاً و أعلاها اسلوباً، ألاوهي معجزة الإسلام الخالدة، عرضت على البشريّة جمعاء مع الأبد، مهما ارتقت و تصاعدت في آفاق الكمال، الأمر الذي يتناسب مع خلود شريعة الاسلام.

و لقد صعب على العرب ـ يومذاک و هم على البداوة الأُولى ـ تحمّل عبء القرآن الثقيل، فلم يطيقوه. و من ثم تمنّوا لو يُبدَّل الى قرآن غير هذا، و معجزة اخرى لاتكون من قبيل الكلام: «قَالَ الَّذينَ لاَيَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقرآنٍ غَيرِ هَذَا أَوْبَدِّلْه قُلْ مَا يَكوُنُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تلقاءِ نَفْسِي إنْ أَتَّبِعُ إلَّا مَا يُوحَى إلَيَّ».[٢] إنّها لم تكن معجزة للعرب فقط، و إنّما هي معجزة للبشرية عبرالخلود، لكن أنّى لأُمّة جهلاء أن تلمس تلک الحقيقة و أن تُدرک تلک الواقعيّة سوىٰ أنّها اقترحت عن سفه: أن يفجّر لهم من الأرض ينبوعاً، أو تكون له جنة من نخيل و عنب و يفجّر الانهار خلالها تفجيراً، أو يسقط السماء عليهم كسفاً، أو يأتي باللّه و الملائكة قبيلاً، أو يكون له بيت من زخرف أو يرقى في السماء، و لايؤمنوا لرقيّة حتى ينزل عليهم كتاباً يقرؤونه... و قد عجب النبيّ صلى الله عليه و آله من مقترحهم ذلک التافه الساقط، ممّا يتناسب و مستواهم الجاهلي، و من ثم رفض اقتراحهم ذاک «قُلْ سُبْحانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إلَّا بَشَراً رَسُولاً».[٣] أي ليس هذا من شأنكم و إنّما هي حكمة بالغة يعلمها الحكيم الخبير.

قال الراغب الاصفهانى: المعجزات التي أتى بها الانبياء عليهم السلام ضربان: حسّي و عقلي:

فالحسّي: ما يدرک بالبصر، كناقة صالح، و طوفان نوح، و نار إبراهيم، و عصا موسى. عليهم السلام

و العقلي: ما يدرک بالبصيرة، كالإخبار عن الغيب تعريضاً و تصريحاً، و الإتيان بحقائق العلوم التي حصلت عن غير تعلم.

فأما الحسي: فيشترک في إدراكه العامة و الخاصة، و هو أوقع عند طبقات العامّة، و آخذ بمجامع قلوبهم، و أسرع لإدراكهم، إلّا أنه لايكاد يفرق ـ بين ما يكون معجزة في الحقيقة، و بين ما يكون كهانة أو شعبذة أو سحراً، أو سبباً اتفاقياً، أو مواطأة، أو احتيالاً هندسياً، أو تمويهاً و افتعالاً ـ إلّا ذو سعة في العلوم التي يعرف بها هذه الأشياء.

و أما العقلي: فيختص بإدراكه كملة الخواص من ذوي العقول الراجحة، و الأفهام الثاقبة، و

الروية المتناهية، الذين يغنيهم، إدراك الحق.

و جعل تعالى أكثر معجزات بني‌اسرائيل حسيّاً لبلادتهم، و قلّة بصيرتهم، و أكثر معجزات هذه الأُمّة عقلياً لذكائهم و كمال أفهامهم التي صاروا بها كالأنبياء. و لذلك قال عليه‌الصلاة و السلام:

«كادت أُمتي تكون أنبياء».[۴]

و لأن هذه الشريعة لما كانت باقية على وجه‌الدهر غير معرّضة للنسخ، و كانت العقليات باقية غيرمتبدلة جعل أكثر معجزاتها مثلها باقية. و ما أتى به النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله من معجزاته الحسيّة، كتسبيح الحصا في يده، و مكالمة الذئب له، و مجيء الشجرة إليه، فقد حواها و أحصاها أصحاب الحديث.

و أما العقليات: فمن تفكر فيما أورده عليه‌السلام من الحكم التي قصرت عن بعضها أفهام حكماء الأُمم بأوجز عبارة اطلع على أشياء عجيبة.

و مما خصه اللّه تعالىٰ به من المعجزات القرآن: و هو آية حسيّة عقلية صامتة ناطقة باقية على الدهر مبثوثة في الأرض، و لذلك قال تعالى: «و قالوا لَولا أُنزِلَ عليه آيات مِن رَبّه قُل إنّما الآياتُ عِندَاللّهِ و إنّما أنا نَذيرٌ مُبين. أوَلَم يَكْفِهِم أنّا أنزلنا عليكَ الكِتابَ يُتلىٰ عَليهِم»[۵] و دعاهم ليلاً و نهاراً مع كونهم أُولي بسطة في البيان إلى معارضته، بنحو قوله «و إن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله. و ادعوا شهداءكم من دون اللّه»[۶] و في موضع آخر: «وادعوا من استطعتم من دون اللّه إن كنتم صادقين»[۷] و قال: «قل لئن اجتمعت الإنس و الجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لايأتون بمثله و لو كان بعضهم لبعض ظهيراً».[۸]

فجعل عجزهم علماً للرسالة، فلوقدروا ما أقصروا، إذ قد بذلوا أرواحهم في إطفاء نوره و توهين أمره، فلما رأيناهم تارة يقولون: «لاتسمعوا لهذا القرآن و الغوا فيه»[۹] و تارة يقولون: «لونشاء لقلنا مثل هذا»،[۱۰] و تارة يصفونه بأنّه «أساطير الأولين»[۱۱] و تارة يقولون «لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة»[۱۲] و تارة يقولون: «إئت بقرآن غير هذا أو بدله»[۱۳] كل ذلك عجزاً عن الإتيان بمثله، علمنا قصورهم عنه، و محال أن يقال: إنه عورض فلم ينقل فالنفوس مهتزّة لنقل ما دقّ و جلّ. و قد رأينا كتباً كثيرة صنّفت في الطعن على الإسلام قد نقلت و تدوولت.[۱۴]

***

و يمتاز القرآن على سائر المعاجز بأنّه يضمّ الى جانب كونه معجزاً جانب كونه كتاب تشريع، فقد قُرن التشريع بإعجاز و وُحدّ بينهما، فكانت دعوة

يرافقها شهادة من ذاتها، دلّ على ذاته بذاته.

قال العلامة ابن خلدون: اعلم أنّ أعظم المعجزات و أشرفها و أوضحها دلالة القرآن الكريم المنزل على نبيّنا محمد صلى الله عليه و آله ... فإن الخوارق في الغالب تقع مغايرة للوحي الّذي يتلقاه النبيّ و يأتي بالمعجزة شاهدة بصدقه، و القرآن هو بنفسه الوحي المدّعى، و هو الخارق المعجزفشاهده في عينه و لايفتقر الى دليل مغايرله كسائر المعجزات مع الوحي، فهو أوضح دلالة، لاتّحاد الدليل و المدلول فيه.

قال: و هذا معنى قوله صلى الله عليه و آله: «ما من نبيّ من الأنبياء إلّا و أوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، و إنّما كان الذي أوتيته وحياً أُوحي اليّ، فأنا أرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة». يشير الى أن المعجزة متى كانت بهذه المثابة في الوضوح و قوّة الدلالة، و هو كونها نفس الوحي، كان الصدق لها أكثر لوضوحها، فكثر المصدّق المؤمن و هو التابع و الأُمّة.(١٥)

***

و قال الجاحظ: بعث اللّه محمداً صلى الله عليه و آله أكثر ما كانت العرب شاعراً و خطيباً، و أحكم ما كانت لغة، و أشدّ ما كانت عدة، فدعا أقصاها و أدناها الى توحيد اللّه و تصديق رسالته، فدعاهم بالحجّة، فلمّا قطع العذر و ازال الشبهة و صار الذي يمنعهم من الإقرار، الهوى و الحميّة دون الجهل و الحيرة، حملهم على حظهم بالسيف، فنصب لهم الحرب و نصبوا، و قتل من عليّهم و أعلامهم و أعمامهم و بني أعمامهم، و هو في ذلك يحتجّ عليهم بالقرآن، و يدعوهم صباحاً و مساءً الى أن يعارضوه إن كان كاذباً، بسورة واحدة، أو بآيات يسيرة، فكلّما ازداد تحدّياً لهم بها، و تقريعاً لعجزهم عنها، تكشّف من نقصهم ما كان مستوراً، و ظهر منه ما كان خفيّاً، فحين لم يجدوا حيلة و لاحجّة قالوا له: أنت تعرف من أخبار الأمم مالانعرف، فلذلك يمكنك ما لايمكننا. قال: فهاتوها مفتريات، فلم يَرُمْ ذلك خطيب ولاطمع فيه شاعر، و لو طمع فيه لتكلّفه، و لو تكلّفه لظهر ذلك، و لو ظهر لوجد من يستجيده و يحامي عليه و يكابر فيه و يزعم أنه قد عارض و قابل و ناقض، فدلّ ذلك العاقل على عجزالقوم، مع كثرة كلامهم، و استجابة لغتهم، و سهولة ذلك عليهم، و كثرة شعرائهم و كثرة من هجاه منهم و عارض شعراء أصحابه و خطباء أُمّته، لأنّ سورة واحدة و آيات يسيرة كانت أنقض لقوله، و أفسد لأمره و

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

أبلغ في تكذيبه، و أسرع في تفريق اتباعه من بذل النفوس، و الخروج من الأوطان و إنفاق الأموال.

و هذا من جليل التدبير الذي لايخفى على من هو دون قريش و العرب في الرأي و العقل بطبقات، و لهم القصيد العجيب، و الرجز الفاخر، و الخطب الطوال البليغة و القصار الموجزة، و لهم الأسجاع و المزدوج و اللفظ المنثور، ثمّ تحدّى به أقصاهم بعد أن أظهر عجز أدناهم فمحال ـ أكرمك اللّه ـ أن يجتمع هؤلاء كلّهم على الغلط في الأمر الظاهر، و الخطأ المكشوف البيّن مع التقريع بالنقص، و التوقيف على العجز، و هم أشدّ الخلق أنفة، و أكثرهم مفاخرة، الكلام سيّد عملهم، و قد احتاجوا إليه، و الحاجة تبعث على الحيلة في الأمر الغامض، فكيف بالظاهر الجليل المنفعة، و كما أنه محال أن يطبقوا ثلاثاً و عشرين سنة (مدة رسالته صلّى الله عليه وآله) على الغلط في الأمر الجليل المنفعة فكذلك محال أن يتركوه و هم يعرفون و يجدون السبيل إليه، و هم يبذلون أكثر منه.[١٦]

التحدّي في خطوات

لقد تحدّى القرآن عامة العرب، مذ نشأ بين ظهرانيهم، و هم لمسوه بأناملهم فوجدوه صعباً على سهولته و ممتنعا على يسره، فحاولوا معارضته و لكن لابالكلام، لعجزهم عنه، بل بمقارعة السيوف و بذل الأموال و النفوس، دليلاً على فشلهم عن مقابلته بالبيان.

و ربّما كانوا بادئ ذي بدء استقلّوا من شأنه، حيث قالوا: «لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَـٰذَا إِنْ هَـٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ»[١٧] و قالوا: «إِنْ هَـٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ».[١٨]

و قالوا: «إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ»[١٩] و قالوا: «مَا أَنْزَلَ اللّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ»[٢٠] إلى امثالها من تعابير تنم عن سخف أوهامهم. لكن سرعان ما تراجعت العرب على أعقابها، فانقلبوا صاغرين، و قد ملكتهم روعة هذا الكلام و طغت عليهم سطوته، متهكّماً بموقفهم هذا الفاشل، و متحدياً في مواضع.

«أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَايُؤْمِنُونَ. فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ».[٢١] و حدّد لهم لو يأتوا بعشر سور مثله مفتريات فيما كانوا يزعمون «أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللّهِ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا انْزِلَ بِعِلْمِ اللّهِ».[٢٢]

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

و تصاغراً من شأنهم تنازل أنْ لو استطاعوا أن يأتوا بسورة واحدة من مثله: «أَمْ يَقُولُونَ افتراهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِن دون اللّه إن كُنتمْ صادقينَ. بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ و لَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلك كَذَّبَ الَّذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ».(٢٣)

و أخيراً حكم عليهم حكمه البات «فَإن لَمْ تَفْعَلوا وَلَن تَفْعَلوا»(٢٤) أن ليس باستطاعتهم ذلك مهما حاولوه و أعدّوا له من حول و قوّة، لأنه كلام يفوق كلام البشر كافّة.

و الآن و قد حان إعلان التحدّي بصورته العامّة، متوجّهاً به الى البشرية جمعاء، تحدّيا مستمراً عبر الأجيال: «قُل لئِنِ اجْتَمَعَتِ الإنْسُ والجِنُّ عَلىٰ أن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذا القرآنِ لاَيَأْتُونَ بِمِثْلِهِ و لَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً».(٢٥)

***

و هل وقع التحدّي بجميع وجوه الإعجاز، أم كان يخصّ جانب فصاحته و بلاغته و بديع نظمه و عجيب اسلوبه فحسب؟

و لعلّه يختلف حسب اختلاف الخطاب... فحيث كان التحدّي متوجّهاً الى العرب خاصة، و لاسيّما ذلك العهد، الذي كانت مهنة العرب فيه خاصة بجانب البيان و طلاقة اللسان... فلا جرم كان التحدّي حينذاک أيضاً خاصّاً بهذا الجانب في ظاهر الخطاب....

أمّا و بعد أن توجّه النداء العامّ الى كافة البشريّة على الإطلاق، فإنّه لابدّ أن يقع التحدّي بمجموعة وجوه الإعجاز من حيث المجموع... حيث اختلاف الاستعدادات و القابليّات... و القرآن معجزة الإسلام، لجميع الادوار و عامّة الأجيال، و لمختلف طبقات الناس، في الفنون و المعارف، و العلوم والثقافات... .

التحدّي في شموله

و هذا التحدّي في عمومه يشمل كلّ الأُمم و كلّ أدوار التأريخ، سواء العرب و غيرهم، و سواء من كان في عهد الرسالة أم في عهود متأخرة حتى الأبد. اللفظ عامّ و الخطاب شامل(٢٦) و لأنّ التحدّي لم يكن في تعبيره اللفظي فقط ليخصّ لغة العرب، و إنّما هو بمجموعته من كيفيّة الأداء و البيان و المحتوى جميعاً. كما أنّه لم يخصّ جانب فصاحته فحسب، ليكون مقصوراً على العهد الأوّل، حيث العرب في ازدهار الفصاحة و الأدب. على أنّ الفصاحة و البلاغة لم تختصّ بلغة دون

أخرى و لا بأمّة دون غيرها.

لكن هناك من حاول اختصاص التحدّي بالعهد الأوّل و إن كان الإعجاز باقياً مع الخلود زعماً بأنّ عجز ذلك الدور يكفي دليلاً على كونه معجزاً أبداً. هكذا زعمت الكاتبة بنت الشاطي، قالت: مناط التحدي هو عجز بلغاء العرب في عصر المبعث، و أمّا حجة إعجازه فلا تخصّ عصراً دون عصر و تعمّ العرب و العجم، و كان عجز البلغاء من العصر الأوّل و هم أصل الفصاحة برهاناً فاصلاً في قضية التحدّي....(٢٧)

قلت: و لعلّها في ذهابها هذا المذهب، خشيت أن لوقلنا بأنّ التحدّي قائم و لايزال، أن سوف ينبري نابرة الكفر و الإلحاد، ممّن لايقلّ عددهم في الناطقين بالضاد، فيأتي بحديث مثله، و بذلك ينقض أكبر دعامة من دعائم الإسلام!

لكنّها فلتطمئن أنّ هذا لن يقع و لن يكون، لأنّ القرآن وُضع على أُسلوب لايدانيه كلام بشر البتة، و لن يستمكن أحد أن يجاريه لاتعبيراً و أداءً و لاسبكاً و اسلوباً، مادام الإعجاز قائماً بمجموعة اللفظ و المعنى، رفعة و شموخ في المحتوى، و جمال و بهاء في اللفظ و التعبير، فأيّ متكلّم أو ناطق يمكنه الإتيان بهكذا مطالب رفيعة، لم تسبق لها سابقة في البشريّة و في هكذا قالب جميل! اللهمّ إلّا أن يفضح نفسه.

و في التأريخ عِبَرٌ تؤثر عن أُناس حاولوا معارضة القرآن، لكنّهم أتوا بكلام لايشبه القرآن و لايشبه كلام انفسهم، بل نزلوا الى ضرب من السخف و التفاهة، بادٍ عواره، باقٍ عاره و شناره، فمن حدّثته نفسه أن يعيد هذه التجربة، فلينظر في تلك العبر، و من لم يستحِ فليصنع ماشاء.

و تلك شهادات من أهل صناعة الأدب، اعترفوا ـ عبر العصور ـ بأنّ القرآن فذّ في أسلوبه لايمكن لأحد من الناس أن يقاربه فضلاً عن أن يمائله.

قال الدكتور عبدالله دراز: من كانت عنده شبهة، زاعماً أنّ في الناس من يقدر على الإتيان بمثله، فليرجع الى أدباء عصره، و ليسألهم: هل يقدر أحد منهم على أن يأتي بمثله؟ فإن قالوا: نعم، لو نشاء لقلنا مثل هذا، فليقل لهم: هاتوا برهانكم. و إن قالوا: لاطاقة لنا به. فليقل لهم: أيّ شيء أكبر شهادة على الإعجاز من الشهادة على العجز. ثم ليرجع الى التأريخ فليسأله ما بال القرون الأولى؟ ينبئك التأريخ أنّ أحداً لم يرفع رأسه أمام القرآن الكريم، و أنّ بضعة النفر الذين انغضّوا

رؤوسهم اليه، باؤوا بالخزي و الهوان، و سحب الدهر على آثارهم ذيل النسيان.(٢٨)

التحدّي بفضيلة الكلام

قد يقول قائل: إنّ صناعة البيان ليست في الناس بدرجة واحدة، و هي تختلف حسب اختلاف القرائح و المُعطَيات، و لكلّ إنسان مواهبه و معطياته. و كلّ متكلّم أو كاتب إنّما يضع في بيانه قطعة من عقله و مواهبه، و من ثم يختلف الناس في طرق التعبير و الأداء، و لايمكن أن يتشابه اثنان في منطقهما و في تعبيرهما، اللهمّ إلّا إذا كان عن تقليد باهت.

إذن فكيف جاز تحدّي الناس لو يأتوا بحديث في مثل القرآن، و هم عاجزون أن يأتوا بمثل كلام بعضهم؟!

لكن غير خفي أنّ لشرف الكلام وضعته مقاييس، بها يعرف ارتفاع شأن الكلام و انحطاطه و قد فصّلها علماء البيان، و بها تتفاوت درجات الكلام و يقع بها التفاضل بين انحائه من رفيع او وضيع، نعم و إن كانت القرائح و المعطيات هي المادّة الأولى لهذا التفاوت، و لاغاري أن يكون كلام كلّ متكلّم هي وليدة فطرته و حصيلة مواهبه و معطياته، بحيث لايمكن مشاركة أي أحد فيما تمليه عليه ذهنيّته الخاصّة، لكن ذلك لايوهن حجّتنا في التحدّي بالقرآن، لأنّا لانطالبهم أن يأتوا بمثل صورته الكلاميّة، كلّا، و إنّما نطلب كلاماً ـ أيّاً كان نمطه و اسلوبه ـ بحيث إذا قيس مع القرآن، بمقياس الفضيلة البيانيّة، حاذاه أو قاربه، على شاكلة ما يقاس كلمات البلغاء بعضهم مع بعض، و هذا هو القدر الذي يتنافس فيه الأُدباء، و يتماثلون أو يتقاربون، لاشيء سواه.

و قد أشار السّكاكي الى طرف من تلك المقاييس التي هي المعيار لارتفاع شأن الكلام و انحطاطه، قال ـ بعد أن ذكر أن مقامات الكلام متفاوتة، و لكلّ كلمة مع صاحبتها مقام، و لكلّ حدّ ينتهي إليه الكلام مقام ـ: و ارتفاع شأن الكلام في باب الحسن و القبول و انحطاطه في ذلك، بحسب مصادفة الكلام لما يليق به.

قال: فحسن الكلام تحلّيه بشيء من هذه المناسبات و الاعتبارات بحسب المقتضى، ضعفاً و قوّةً على وجه من الوجوه (التي يفصّلها في فني المعاني و البيان).

و يقول ـ بعد ذلك ـ: و إذ قد تقرّر أنّ مدار حسن الكلام و قبحه على انطباق تركيبه على

مـــقتضى الحـــال و الاعـــتبار المـــناسب، و عـــلى لاانـــطباقه، وجب عـــليك ـ أيّهـــا الحـــريص عـلى ازديـاد فـضلک، المـنتصب لاقـتداح زنـاد عـقلک، المـتفحّص عـــن تـــفاصيل المـــزايـــا التي بهـا يـقع التفاضل، و يـنعقد بـين البـلغاء في شأنهـا التسـابق و التناضل ـ أن ترجـع الى فكـرک الصـائب، و ذهـنک الثـاقب، و خـاطرک اليـقظان، و انـتباهک العـجيب الشأن، نـاظراً بـنور عـقلک، و عـين بـصيرتک، في التـصفّح لـمقتضيات الأحـوال، في إيـراد المسـند إليـه على كيفيّات مختلفة، و صـور مـتنافية، حـتى يـتأتّى بروزه عندک لكلّ مـنزلة في مـعرضها، فـهو الرهـان الذي يجـرّب بـه الجـياد، و النـضال الذي يـعرف بـه الأيدي الشـداد فـتعرف أيّمـا حـال يـقتضي كـذا... و أيّما حال يقتضي خلافه... الخ.(٢٩)

و عـــليه فـتزداد قـوّة الكـلام و صـلابته و كـذا روعة البيان وصولته، كـلّما ازدادت العـناية بجـوانـبه اللـــفظية و المـــعنويّة مـــن الاعـتبارات المناسبة، و رعاية مقتضيات الأحوال و الاوضاع، و ملاحظة مستدعيات المقامات المتفاوتة، على ما فصّله القوم. و قلّ من يتوفّق لذلک بالنحو الأتمّ أوالأفضل، بل الأكثر، مادام الإنسان حليف النسيان. أمّا بلوغ الأقصى و الكمال الأوفى، الذي حدّ الإعجاز، فهو خاصّ بذي الجلال المحيط بكلّ الأحوال.

و في ذلک يـقول السكّـاكـي: «البـلاغة تـتزايـد الى أن تبلغ حدّ الإعجاز، و هو الطـرف الأعـلى و مـا يقرب منه».(٣٠) و منه أخـذ الخـطيب القـزويني: «و للبلاغة في الكلام طرفان، أعلى و هـو حـدّ الاعـجاز و ما يقرب منه. و أسفل و هو مـا إذا غـيّرالكـلام الى مـــا دونـــه التـــحق عـــند البـــلغاء بأصـــوات الحيوانات».(٣١)

إذن فالطرف الأعـلى و مـا يـقرب مـنه، كـلاهما حدّ الإعجاز، عـلى مـا حـدّده السّكـاكـي، و بـذلک يكون اختلاف مـراتب آيـات القـرآن في الفـصاحة و البـيان، كـلّه داخـلاً في حـدّ الإعـجاز الذي لايـبلغه البشر. و هذا هو الصحيح، على ما سنبيّن.

و بعد، فالمتلخّص مـن هـذا البـيان: أن التـفاضل بـــين كـــلامين أو التمـــاثل بـينهما إنّمـا يـتحقّق بهـذه الاعـــتبارات ـ التي هـــي مـقاييس لدرجـة فـضيلة الكلام ـ و هي من قبيل المعنى أكـثر مـن كـونها مـن قـبيل اللـفظ. فـليس المـقصود بـالتحدّي، المـعارضة في التشـــاكـــل اللـفظي و التمـاثل في صـورة الكـلام فحسب، كـما حسـبه مسيلمة الكـذّاب و مـن حـذا حذوه من أغبياء القوم.(٣٢) ■

الهوامش

۱. الاعجاز ضرورة دفاعية قبل أن تكون ضرورة دعائية... إنّ رسالة الأنبياء على وضح من الحقّ الصريح، ولاحاجة الى إقامة برهان. له دعوة الحقّ. و بالحقّ أنزلناه و بالحق نزل. ذلک الکتاب لاريب فيه. يا أيها الناس قد جاءکم الحقّ من ربّکم. و يرى الذين اوتوا العلم الذي انزل اليک من ربّک هو الحقّ. و ليعلم الذين أُوتوا العلم أنّه الحقّ من ربّک فيؤمنوا به... نعم، و أکثرهم للحقّ کارهون. و جحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً و علوّاً... .

و من ثمّ وقفوا في سبيل الدعوة إما معارضة بالوساوس والدسائس و عرقلة الطريق، فدعت الضرورة الى الدليل المعجز استيقانا و دفعا للشبهة، أو مكافحة بالسيف فدعت الحاجة الى القتال و الجهاد... .

۲. يونس: ۱۵.

۳. الاسراء: ۹۳.

۴. مسند أحمد، ج ۱، ص ۲۹۶.

۵. العنكبوت: ۵۱ ـ ۵۰.

۶. البقرة: ۲۳.

۷. يونس: ۳۸.

۸. الاسراء: ۸۸.

۹. فصلت: ۲۶.

۱۰. الأنفال: ۳۱.

۱۱. النحل: ۲۴.

۱۲. الفرقان: ۳۲.

۱۳. يونس: ۱۵.

۱۴. عن مقدمته على التفسير: صص ۱۰۴ ـ ۱۰۲.

۱۵. المقدمة (السادسة): ص ۹۵.

۱۶. الإتقان: ج ۴، صص ۶ ـ ۵. وله كلام تفصيلي آخر في إثبات إعجاز القرآن، ذكره في رسالته (حجج النبوّة): ص ۱۴۴ فما بعدها. و قد نقله صاحب الإعجاز في دراسات السابقين: صص ۱۶۲ ـ ۱۵۸.

۱۷. الانفال: ۳۱.

۱۸. المدثر: ۲۵.

۱۹. النحل: ۱۰۳.

۲۰. الأنعام: ۹۱.

۲۱. الطور: ۳۴ ـ ۳۳.

۲۲. هود: ۱۴ ـ ۱۳.

۲۳. يونس: ۳۹ ـ ۳۸.

۲۴. البقرة: ۲۴.

۲۵. الإسراء: ۸۸.

۲۶. و بتعبير اصطلاحي أُصولي: أنّ هذا الخطاب يضمّ الى جانب عمومه الأفرادي إطلاقاً احوالياً و إطلاقاً زمانياً معاً، إذن فللخطاب شمول من النواحي الثلاث: الأفراد الموجودين و الأقوام الذين يأتون من بعد. و ايّاً كانت حالتهم و على أيّ صفةٍ كانوا... .

۲۷. الإعجاز البياني، صص ۶۸ ـ ۶۵.

۲۸. النبأ العظيم، ص ۷۵.

۲۹. مفتاح العلوم، صص ۸۱ ـ ۸۰و ص ۸۴.

۳۰. مفتاح العلوم، صص ۱۹۹ ـ ۱۹۶.

۳۱. المطول للتفتازاني، ص ۳۱(ط استنبول).

۳۲. اخذنا هذه المقالة من كتاب «التمهيد».

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی